حفريات في ذاكرة اللغة والسرد
قراءة في كتاب ياسين الأيوبي" ثنائية الإمتاع والتوتير اللغوي في ثلاثية الجزائر الروائية " لعبد الملك مرتاض

أ.د. رابح طبجون
المدرسة العليا للأساتذة. قسنطينة. الجزائر

تمهيد:

في كل مغامرة كتابية للدكتور ياسين الأيوبي لحظة وجودية مبتكرة، وجاذبية قرائية ذات توتر مرتفع، يكشف فيها كما عودنا دائما عن طاقة خلاقة وموهبة أصيلة وذكاء متوهج، ووعي حصيف، ووجدان حي نابض بالإيمان.

حاول متابعة تضاريس الكتابة الروائية وطقوسها عند الدكتور عبد الملك مرتاض، والتأمل في عوالمها وعناصرها وشخوصها، ولم يكتف بالتصفح البصري لهذه العوالم بل غاص في تكوينها وممكناتها ورؤاها وأعماقها تسعفه في ذلك حاسته السادسة وثقافته المتجذرة في المنجز السردي العربي والغربي.

ورغم صداقته للدكتور عبد الملك مرتاض التي تربو على ما يقارب نصف قرن من الوجود فإن هذا لم يمنعه من وضع إبداعه موضع التساؤل المفتوح واستنطاقه وقصفه بحدة وصرامة فيما لا يستجيب مع مزاجه الجمالي، دون أن "يعصمه من جزع الأبعاد وأشداق التنين"[1]. وأن يكشف الأقنعة المراوغة للدكتور مرتاض الروائي والناقد والسوسيولوجي والميثولوجي والأديب المبدع، رغم اعتزازه الشديد به باعتباره أحد سدنة الثقافة العربية المعاصرة.

النقد وسلطة التلقي:

يحيل الدكتور ياسين الأيوبي في كتابه " ثنائية الإمتاع والتوتير اللغوي في ثلاثية الجزائر الروائية "لعبد الملك مرتاض"[2] على قضايا مركزية تمثل مفاتيح في النظرية النقدية

المعاصرة، تتعلق بالتلقي كما أقرتها إنجازات المدرسة الألمانية وممثليها روبر ياوس Robert jauss (1927– 1997) و فولفغانغ إيزر Wolfgang Iser (1926– 2007)، التي أعادت بناء تصور جديد لمفهوم العلاقة المباشرة التي تتكون عبر صيرورة القراءة ذاتها بين النص والقارئ ، مع حرصه على المتابعة بوعي عميق الثنائيات الضدية في علائقها المتشابكة وما تثيره من دهشة لا متناهية.

إن ياسين الأيوبي ولج عالم عبد الملك مرتاض الروائي مدجج بعدة وعتاد إبستمولوجي من العيار الثقيل (مارد في مواجهة مارد)، وبزاد لغوي تؤثثه المكتبة التراثية العريقة ومخزونها المترامي في إيقاع إبداعي خلاق تعززه ملكة التميز والفرادة "حيث يقف على بلاغة السرد في ثلاثية الجزائر،كاشفا عن مواطن الإمتاع اللغوي والتوتير...ناهيك عن العدول الدلالي الذي لا ينفك يصدمنا في كل مرة"[3].

الاحتفاء بالمعمار ومشكلاته البنيوية:

حاول الدكتور ياسين الأيوبي أن يترسم نقاط الإبداع أو (التجليات) وما خالطها من متعة مضاعفة أو توتير بكل أبعاده ومنعطفاته على مستوى الثلاثية، تنقذه من المتاهات المفتوحة على الاحتمالات، وتتحكم في إيقاع الإبحار من عالم سردي إلى آخر وفق تعدد الأنساق المعرفية المؤطرة لفعل الإبداع برصد:

-الزمان والمكان، وأبرز الأحداث والشخصيات الفاعلة.

-طبيعة السرد الروائي ووجوهه.

في مثل هذا الأداء تعجبه الشخصيات المذهلة في تموضعها مثل"الشيخ الأجيد الشعراني"[4]، والأماكن المريبة الغريبة وبنيتها الملتبسة، مثل"مدينة الجسور المعلقة بأسباب السماء"[5] و"مدينة أم العساكر الخضراء"[6]، ويتفق مع ميلان كونديرا في " أن الرواية لا تتعين خطابا معرفيا إلا عندما تستنطق الوجود الغامض غموضا رهيبا"[7]، وكذلك يشيد بالشخصيات ذات الحضور المفاجئ والتصرفات غير المتوقعة. ويكشف من خلالها عن الحس الفانطاستيكي الأنثوي الكثيف والمركز، متأثرا بأجواء العاشقين والمشاهد حارة

الوقع، كالحديث عن "المرأة الحسناء الأسطورية"[8]، و"وصف بدائع الجمال وضروبه ومقاماته"[9]، بما يحقق التأثير والتحفيز الجمالي.

ويرفض في هذا المنحى الانسياق وراء التعريفات المباشرة وتداخل السرد الروائي بالنصوص التاريخية والخطابات السياسية ذات النمط الدعائي، ويشعر بالضجر بسبب ضحالة الأجواء الملحمية وهشاشتها، ومناقشة المعاني الفلسفية الجادة التي تثقل كاهل السرد. خاصة وأن بعض التوترات السردية لا تبقى على نفس السيرورة بل تتنزل إلى درجة الإخبار القصصي والسياق الجاهز في أشكال مختلفة متباينة، مع التدخل و"التعديل من هيئة الراوي وطبيعته"[10].

الاحتفاء باللغة:

يعج عالم ياسين الأيوبي بتأملات ثاقبة تنهض على خيال آسر وثاب وقصدية في البث اللغوي وترداداته، متدثرا بجلال اللغة وإلهامها ومرتكزات الإبداع والتجلي فيها، عن طريق رصد أشكال الاستمتاع بمهارات اللغة وغناها لتشييد طريقة تعبيرية مبتكرة، و من خلالها الركائز والأعمدة والأنسجة والخيوط (العناصر والمقومات).

أو من خلال التوتير والإغراب اللغوي بكل أبعاده وأشكاله، بما فيها من وجوه المعاضلة والتكلف الماحل أو الحشو وشطحات اللغة أو تصدع الرؤية والتأمل في مساراتها المتقاطعة التي تقف حائلا دون متعة المتابعة والتذوق الأدبي. الأمر الذي أصاب الثلاثية كما قال ببعض الترهل ولكنه لم يعرقل المسار الدرامي المتدفق ولم ينل من كفاءتها السردية المستجدة .

خاتمة:

لقد حاول الدكتور ياسين الأيوبي أن يكشف عن لذة القراءة ومتعتها المزلزلة في ظل كتابة نوعية تستكشف الدلالات المغايرة وتفتح آفاقا تعبيرية تتجاوز النمطي المألوف، وتتحدى استجابتنا المعهودة وتحبط توقعاتنا القاصرة المسكونة بقوالب اليقين. فهو يتفق مع جاك دريدا Jacques Derrida (1930– 2004)، في إنكار وجود المعنى الواضح.

وبعيدا عن الالتباسات النظرية التي تتطلب رؤية متميزة وإدراكا بالغ التعقيد تعكس ألق التجربة وخصوصيتها، فإن الرجل الذي عشق حوريات اللغة ونوستالجيا ثورة الجزائر، لم يطبع قبلته هذه المرة على نهر الدانوب وإنما طبعها على جبين الرواية الجزائرية بأمجادها وذكرياتها وعبق تاريخها المجيد.

الإحالات:

1. ياسين الأيوبي: ميلوديا الوجع الأكبر، مجلة العربي، الكويت، عدد 588، نوفمبر 2007، ص 82.
2. ياسين الأيوبي: ثنائية الإمتاع والتوتير اللغوي في ثلاثية الجزائر الروائية" لعبد الملك مرتاض، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2015.
3. أنظر مقدمة الدكتور محمد كعوان لكتاب ياسين الأيوبي: ثنائية الإمتاع والتوتير اللغوي في ثلاثية الجزائر الروائية" لعبد الملك مرتاض، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر 2015.
4. ياسين الأيوبي: ثنائية الإمتاع والتوتير اللغوي في ثلاثية الجزائر الروائية" لعبد الملك مرتاض، ص31.
5. المرجع نفسه، ص30.
6. المرجع نفسه، ص133.
7. ميلان كونديرا: فن الرواية، ترجمة: بدر الدين عرودكي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2001، ص 9.
8. ياسين الأيوبي: ثنائية الإمتاع والتوتير اللغوي في ثلاثية الجزائر الروائية" لعبد الملك مرتاض، ص127.
9. المرجع نفسه، ص30.
10. المرجع نفسه، ص11.